لكى ننتفع بتجاريب غيرنا

٢ ـ المسرح فى أوربا

بين حربين

(فى انجلترا)

الأستاذ دريني خشبة

رأينا فى الكلمة السابقة كيف علل إرقن عوامل الرقى والانحطاط فى المسرح الأوربى بوجه الإجمال ، وعرفنا وجهة نظره فى جمهور النظارة ؛ وسنرى كيف يربط وجهة نظره تلك بتأخر الدرامة بعد الحرب الكبرى فى أوربا عامة وفى انجلترا على وجه الخصوص ، ثم ما نشأ عن انحطاط حاسة هذا الجمهور الفنية من قيام المسارح التجارية التى أجهزت على البقية الباقية من السمو المسرحى الذى ورثته أوربا عن جهابذة كتاب الدرامة وشعرائها قبل تحول هذه القارة من الزراعة إلى الصناعة ، ثم ما صنعته الحرب الكبرى من التحلل فى أعصاب الأوربيين وما أفسدت به أرواحهم من انتشار الخلاعات فى معظم شعوبهم ولا سيما فى شعوب البحر الأبيض المتوسط أو الشعوب اللاتينية على وجه التخصيص

لم تعد تروج المأساة فى مسارح هذه الشعوب المحتاجة إلى ما يرفه عنها . . . لقد فقدت انجلترا قرابة المليون من زهرة شبابها المثقف اليانع ، وقتل الرجال فى فرنسا التى فقدت فى تلك الحرب الشئومة أكثر من مليونين ، وكان لقتلهم أوخم العواقب الاجتماعية والأخلاقية ، فقد فشت الخلاعة ، وانتشرت الرشوة ، ونفقت السوق السوداء ، وخربت الأمم ، واختلت معايير الفضيلة ، وأصبحت الخيانة الوطنية أبسط الجرائم التى تقترف دون مبالاة . أما فى إيطاليا فقد خنقت الحريات باسم الإصلاح الفاسستى ، ذلك الإصلاح المادى الذى ملأ روح الأمة بالخيلاء والزهو الكاذب وأفسد فيها مثل غاريبلدى العليا . . وفى أسبانيا حدثت القلاقل التقليدية فى تاريخها المفعم بالأعاجيب ، فطاح عرش ألفونسو ، وشبت الحرب بين الاشتراكيتين اللتين تصطرعان الآن فى روسيا وألمانيا ، وانصرف الجمهور عن المسرح بعد إذ كان يشارك الجمهور الإيطالى فى الذهاب إليه (بالجملة) حيث كانت العائلات تقصد بكامل هيئاتها لشهود الروايات التمثيلية حاملة معها عشاءها أو غداءها فلا تجد بأساً من تناوله أثناء التمثيل . أما فى روسيا وألمانيا فقد عرفنا رأى الاشتراكية فى الفنون والآداب والأخلاق والأديان فى الكلمة السالفة ، وعرفنا كيف خضع المسرح فيهما لخدمة الدعاوة السياسية مما حاد به عن الجادة

فمن غير المعقول أن يرى التأليف المسرحى فى شعوب هذه حال الكثرة الساحقة من أفرادها ، وإذا قدر لنوع من التأليف أن يروج فيها فلا بد أن يكون النوع الذى ينحط إلى مغازلة هذه الأذواق المريضة والأعصاب المهوكة والأرواح المتعبة ؛ ومؤلف الدرامة مضطر إلى أن ينصاع للخطة التى تمليها عليه الظروف المسرحية والتى ترسمها وتتحكم فيها نقود ذلك الجمهور ، تلك النقود التى أتلفت الدرامة الفنية وخلقت المسارح التجارية فى طول أوربا وعرضها ولاسيما فى فرنسا وفى انجلترا . إننا نردد فى مصر دائماً أن واجب رجل المسرح سواء أكان مؤلفاً أو مخرجاً أو ممثلاً هو أن يرتفع دائماً بالجمهور لا أن ينحط إلى مستوى الجمهور ، ثم ننسى أن ذلك الارتفاع بالجمهور الذى ننادى به هو عمل شاق يتعرض دائماً لظروف تجعل المهمة تنتهى دائماً إلى الفشل الذريع ، لأننا نتعامى عن عيوب جمهورنا الذى كان ينبغى إصلاحه وتهيئته لشهود الروائع المسرحية . إن جمهورنا بثقافته التى لا تجهلها غير مستعد لشهود الدرامة الهادئة التحليلية ذات القضايا التى تنتهى إلى نتائج ترضى العقل ولا تستفز القلب ، وتقنع التفكير ولا تحرك العاطفة . ولقد حاولت الفرقة القومية المنحلة القيام بهذا العمل الجليل ، فماذا كانت النتيجة ؟ ... إنها لم تجد جمهوراً ... لأنها نسيت طبائع هذا الجمهور فلم تعالجها العلاج المعقول ولم تزخرف له من المغريات ما تجذبه بواسطته إليها ... ولو أننا الآن بسبيل الكلام عن المسرح المصرى لخضنا فى الحديث عن الفرقة القومية التى أدى إلى حلها ، كما أدى إلى إلغاء معهد التمثيل ، تفكير أمىّ مرتجل يدل على قصر النظر إن لم يدل على العمى المطلق الذى يصيب سياستنا الإنشائية دائماً ... ولما كان لهذا الحديث حينه إن شاء الله فنحن نرجئه لوقته ...

تحكم العامل الاقتصادى إذن فى خلق المسرح التجارى فى أوربا جميعها ، وفى انجلترا خاصة ، ولكى نعذر مديرى

المسارح التجارية في الانزلاق بالدرامة وبالمسرح في هذه الهوة التي لم تكن تليق بأسمى الأعمال الفنية الثقافية . نذكر أن متوسط نفقات المسرح العادي في انجلترا في الأسبوع الواحد هو أربعمائة جنيه ، ويقفز هذا المبلغ في مسارح الوست إند West End الإنجليزية إلى ١٢٠٠ جنيه أو ١٣٠٠ جنيه في الأسبوع ، إذ يقدر إيجار المسرح بما يتراوح بين ٢٥٠ و ٦٠٠ جنيه في الأسبوع الواحد ، ومتوسط إيجار أحد المسارح اللندنية اليوم هو ٤٠٠ جنيه في الأسبوع ، وبإضافة أجور الممثلين والإداريين ومصممي المناظر ومهندسي الإضاءة والخدم والمستخدمين الآخرين ورجال الأركسترا وأجور الإعلان والنور والتدفئة الصناعية وثمن الدرامة وضريبة الملاهي (وإن تكن محتسبة على النظارة) يقفز المنصرف على المسرح أسبوعياً إلى ما ينيف على الألف جنيه بكثير . وإذا علمنا أن ثمن تذكرة الكرسي الممتاز هو ستون قرشاً (١٢ شلناً) ، وأن ثمن الكرسي العادي هو تسعة قروش عرفنا أن إيراد المسرح متوقف إلى حد بعيد على ثمن الكراسي الممتازة (الألواج والبناوير والكراسي الأمامية) وهي الكراسي التي يدفع ثمنها الأغنياء من الجمهور الذي وصفنا ، فإن لم يعمل مدير المسرح حساباً لذوق هؤلاء الأغنياء انصرفوا عنه بطبيعة الحال وتكون النتيجة المنطقية هي الخراب والإفلاس إذ تسقط الرواية من الوجهة الاقتصادية ، والمدير محتاج - كي يغطي مصروفات الإخراج فقط - إلى أن تباع جميع كراسيه في حفلات شهرين على الأقل ، لأن فترة الإخراج لا تدر عليه إيراداً ، وهي عادة تكلفه ثلاثة أسابيع ، أي أنها تكلفه حوالي أربعة آلاف أو خمسة آلاف من الجنيهات . ومن أطرف ما يورده إرقن بهذه المناسبة أن جميع المديرين في مسارح لندن ، بل في جميع المسارح الإنجليزية هم رجال مثقفون ثقافة ممتازة ، وهم لهذا يخجلون من أنفسهم كلما بالغوا في الإسفاف بالدرامة إلى حضيض التهريج والشعبذة ليضمنوا إقبال الطبقة الخاصة من هؤلاء الأغنياء التي تشتري التذاكر ذات الأثمان المرتفعة

« وليس أحب إليهم ، لهذا السبب ، من أن يقدموا للجمهور درامات من عصارة الفكر ولباب الفلسفة لو ضمنوا جمهوراً من الأغنياء الفلاسفة ؛ إذ لو تأخر الزمن بشيكسبير وأقبل بعد الحرب الكبرى وفي يده روايته الخالدة هملت ليعرضها على أحد هؤلاء المديرين لألقوه جميعاً من نوافذ مسارحهم ، إن لم يلقوه في شيء آخر داخل هذه المسارح (!!) وذلك لأن في رواية هملت ثلاثين بطلاً يقتل معظمهم ، ثم منظر هذا الشيخ الفزع كفيل بتمزيق أعصاب المترفين من جمهور النظارة ... فما لهم ولهذه المهلكات التمثيلية ، وما جاءوا إلا ليلهوا هذا اللهو الخفيف الظريف الذي لا يسيل دموعاً ولا ينكأ في القلوب أوجاعاً !! ولا شك في أن شكسبير كان يرتد على عقبيه كسير الفؤاد كاسف البال فينطوي إلى الأبد على نفسه ، وتضيع عبقريته التي تألقت في عصر إليزابث هباء منثوراً »

وقد عولج هذا الخطر في انجلترا علاجاً جميلاً ، إذ أنشئ في كل مدينة انجليزية هامة مسرح من المسارح باسم The Repertory Theatre أو المستودع — إن جازت هذه الترجمة السقيمة — أو مسرح الروايات التي سبق تمثيلها . وتمتاز هذه المستودعات بقلة النفقات ، إذ لا يتجاوز مصروفات أحدها المائة من الجنيهات كما تمتاز بتفاهة أجور الممثلين وثبات ما تنفقه على المناظر لأنه لا يتكرر إلا كلما رث وأصبح غير صالح للاستعمال ، ثم هي معفاة تقريباً من مصروفات الإخراج . فمن أشهر تلك المسارح مسرح برمنجهام الذي يدين ببقائه لكرم المستر باري جاكسون ؛ ثم مسرح منشستر The Gaiety Th. الذي كان يدين بوجوده للمنح الكبيرة السخية التي تنفحه بها الآنسة هورنيمان Miss H. تلك الإنجليزية العجيبة التي كانت تنفق من حر مالها على مسارح كثيرة حفظاً لها من الانحلال ؛ فمن تلك المسارح التي كانت تنعم بأعطياتها مسرح دبلن بإيرلندة The Abbey Th. أما مسرح ليفربول The Playhouse فكان هو الآخر يعتمد في مواصلة أعماله على كرم اثنين من أسخياء الإنجليز ... وقد كانت معظم هذه المسارح تستمد قوتها من مسرح الكورت The Court بلندن الذي كان يأذن لها جميعاً في تمثيل رواياته بل كان يمدها ببعض ممثليه ... على أن مسارح المستودعات كثيراً ما كانت تحيد عن تقاليدها فتخرج روايات جديدة للمؤلفين المبتدئين . ومن هنا كانت فائدتها الجزيلة في إظهار عبقريات انجليزية لم تكن لتبرز إلى الوجود لو لا هذه المسارح . وحسبك أن تعلم أن برمنجهام كان الحقل الأول الذي نما فيه جون درنكووتر حيث أخرج له روايته المعروفة (أبراهام لنكولن) ، كما نما فيه أيضاً شاعر الأوبرا المشهور (رتلاند باوتن) ؛ وأن مسرح دبلن كان الحقل

الأول الذى ازدهر فيه العامل الدرامي الكبير جون . م . سينج Synge والمستر لتكس روبنسن والليدى جريجورى . والذى يهمنا من هؤلاء الثلاثة هو سينج الذى يسمو إلى مرتبة شو فى المسرح الإنجليزى الحديث ؛ ولولا مسرح ديلن لما ظهر فى الوجود . وفى مسرح منشستر : الـ Gaiety ظهرت عبقرية ستانلى هاوتن ، شارلز ماك إفوى Mc Evoy ومستر ألان منكهوس . وفى ليفربول تألق نجم المستر رونالد جينس الناقد المسرحى اللامع ... أما فى مسرح الكورت بلندن فقد وثب إلى ثمة المجد مستر شو وجولذورثى وجرانفيل باركر وجون هانكن ... وكما كانت هذه المسارح وسيلة لإظهار هذه الطائفة الضخمة من كبار المؤلفين فكذلك كانت سبباً لظهور أكابر الممثلين الإنجليز . وقد كان مسرح ليفربول أعظم مدرسة إنجليزية لتخريج أحسن ممثلى الطراز الأول كما بدأ نبوغ الممثلة الدائمة الصيت سيبيل ثورنديك فى مسرح منشستر وهى التى أصبحت درة مسارح الوسنت إند فيما بعد ... وكذلك أخرجت تلك المسارح طائفة عظيمة من كبار المخرجين وعلى رأسهم المستر باسل دين Basil Dean ؛ كما أخرجت الكثيرين من مصورى المناظر وفى مقدمتهم المستر جورج هارس Harris

أما ما كان يعاب على مسارح المستودعات هذه فجملة أمور أهمها ضآلة أجور الممثلين وضآلة المكافآت التى كانت تمنحها للمؤلفين الناشئين — وكثيراً ما كانت المس هورنيمان وغيرها من أسخياء الإنجليز هم الذين يشترون الروايات الجديدة ويمنحونها للمسارح على سبيل الهدايا ومن باب التشجيع ، — وكانت هذه المسارح كلها متقاطعة فيما بينها ، فلا يتصل أحدها بالآخر ، ولا تقوم فرقها بزيارات إقليمية ، وكانت عنايتها بالروايات الجديدة تافهة كما قدمنا . ولعل هذا كان سبباً فى تخليد تلك الثروة العتيدة الضخمة من الروائع المسرحية القديمة التى لولا مسارح المستودعات لاختفت إلى الأبد أو لأصبحت محبوسة فى بطون الكتب لمن شاء أن يقرأها لا لمن يحاول أن يمثلها أو يشهدها على خشبة المسرح قطعة فنية حية تتحرك بأشخاصها ومناظرها وعنصرها وموضوعها . على أن أكبر عيوب تلك المسارح هو الملل الذى يتسرب إلى نفوس النظارة من كثرة ما يشهدون ممثليها ، إذ يتفق للمتفرج أن يشهد الممثل ثلاثين أو أربعين مرة (هذا فى انجلترا !) فى السنة الواحدة ، وفى ذلك من الأملال لنفس المتفرج ما فيه ، والمتفرج — بل كل نفس بشرية — محتاجة إلى التشويق بالأشخاص الجدد حاجتها إلى الهواء الجديد والمناظر الجديدة والموضوعات الجديدة . ولعل هذا الركود فى وحدة أشخاص الممثلين هو الذى أوشك أن يقضى على تلك المسارح بانصراف الجمهور عنها — ولعل هذا أيضاً هو أحد العوامل التى هونت على الجمهور المصرى شأن المسرح وسببت انصرافه عنه . وهم يقترحون لاستدراك هذا الخطر — فى انجلترا طبعاً — تسهيل تزاور هذه الفرق ليعرض كل منها رواياته فى مسارح البلدان الأخرى ، على ألا تتحمل الفرق مصروفات الانتقال أو أجور المسارح التى تزورها ما دام التزاور سيكون على قاعدة التبادل المنفعى ... ومن عيوب مسارح المستودعات أيضاً سرعة تغيير البرنامج الذى يقتضيه الفرار من إملال الجمهور المتشوق إلى رؤية الجديد دائماً ... وسرعة تغيير البرنامج تؤدى إلى أخطار كثيرة منها عدم عناية الممثل بدوره لكثرة إرهاقه بالعمل . وكان المسرح الألمانى يتخلص من نتيجة ذلك بتمثيل الرواية الواحدة فى أكثر مسارح الـ Prepertory فى وقت واحد ولمدة طويلة معينة ربما امتدت إلى أكثر من خمسة عشر أسبوعاً ، وبذلك يضمن ربحاً معقولاً للمؤلف الذى تخصص له حصة معلومة من جميع المسارح ، كما يضمن الراحة لجميع أفراد الممثلين الذين يتمكنون بذلك من أداء أدوارهم على خير وجه مضمون . على أن الألمانيين ، قبل الحرب الكبرى ، كانوا يعرفون للمسرح قدره ، وقد ضاقوا ببطء الأساليب المسرحية الإنجليزية فأنشأوا مسارحهم الخاصة على منوال جديد وذلك بتشييد المسارح الشعبية الحرة Free Peopl's Th. التى كانت بلديات المدن الكبرى تمدها بإعانات على جانب كبير من السخاء كما كانت هى تتألف عن طريق الاشتراك من آلاف الأعضاء الذين كانوا يمنحون امتيازات عظيمة لشهود الروايات ، وكان أجر الدخول لا يتجاوز الخمسة قروش قط ، كما كانوا ، مقابل جنيه واحد فى السنة ، يحصلون ، يحصلون على مجلة مسرحية ثقافية ويملكون الحق فى شهود عدة محاضرات ثقافية تلقى